الإحالة النصية وأثرها في تماسك الخطاب في كتاب سيبويه دراسة في ضوء لسانيات النص

م. م زينة قاسم جواد
وزارة التربية/ مديرية بغداد- الرصافة الأولى
Zina.Qasim.Jawa@ec.edu.iq

الخلاصة:

إنّ المتأمل في بنية (الكتاب) لسيبويه يدرك أنّه انتهج من التبويب علاقات تواصلية مترابطة من أوّل الكتاب إلى آخره، فلفظة (الباب) ليست مجرّد حدّ فاصل أو عنوان مستقل ساكن، بل هو فضاء رحب يجوب نص المدوّنة نصّاً متكاملاً، والإحالة كانت الخيط الذهبي الذي سبك به المؤلّف جزئيات عمله، فربط بين جزئيات القاعدة بمقام المستوى الذي تحدّث فيه على وفق متطلبات السياق؛ لذلك وقفنا على مستويات اللغة (النحو، الصرف، الصوت..) من غير أن يصرّح بها الكاتب، فبالضمير مرة وبالموصول مرة وبالإشارة أخرى أحال الكاتب، والتزم المتلقي بالعودة أو التقدّم لتتبع تكامل الفكرة، كلّاً في موضعه المناسب من غير ملل ولا كلل ولا تكرار، لتُثبت لنا الدراسة أنّ لفظة الباب والإحالات المرافقة لها أنّها من الخطوات الأولى لنشوء فكرة نحو النّص التي أشيع عنها بأنّها وليدة الحاضر أو الدراسات الحديثة، والفضل لا ينكر لمن أتاح لهذه الدراسات الحديثة أن تخرج للوجود وبمصطلحات تواكب الحياة، وتواكب تطوّر اللغة.

الكلمات المفتاحية: الإحالة، النص، تماسك الخطاب.

Abstract :
"An analytical reading of the structural framework of Sibawayh's Al-Kitab reveals an intricate taxonomical methodology that establishes communicative trajectories throughout the text. The term 'Al-Bab' (the chapter/entry) transcends its traditional role as a mere structural divider or static heading; rather, it functions as a dynamic discursive space that encapsulates a unified textual entirety. Within this space, Anaphora/Reference (Al-Ihala) serves as the 'golden thread' that weaves together the individual components of the author's work. It bridges the gap between the micro-level grammatical rules and the macro-level communicative context (Maqam), aligning with the pragmatic requirements of the discourse.
Our investigation across various linguistic levels—phonological, morphological, and syntactical—demonstrates how the author implicitly employs reference through pronouns, relative clauses, and demonstratives. This strategic use compels the recipient to engage in a cognitive process of backward or forward retrieval to achieve conceptual integration, ensuring clarity without redundancy or communicative fatigue. Ultimately, this study substantiates that the concept of 'Al-Bab' and its accompanying referential mechanisms represent the foundational precursors to Text Linguistics. Although often perceived as a modern disciplinary emergence, the roots of this field are undeniably present in our heritage, providing a sophisticated terminological framework that remains congruent with contemporary linguistic evolution and the shifting demands of modern life".
Keywords: Reference, text, discourse cohesion.Abstract.

المقدمة:

يُعد كتاب سيبويه الدستور الأوّل الذي سنّ قواعد اللغة العربية، إذ استقاه من اللسان العربي، تحليلاً وتفصيلاً، إذ قال تعالى: ((كِتَٰب فُصِّلَت ءَايَٰتُهُۥ قُرءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوم يَعلَمُونَ)) (فصلت: 3)، فكان المفصّل والمحلل لهذا الكلام العظيم؛ لأنّه ليس مجرّد تجميع للمسائل النحوية أو رصد للظواهر الصرفية والصوتية، ولكنّه بنية نصية كبرى ذات عقلية فريدة، إذ ميّزته لغة القرآن التي كانت بـ(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) الشعراء: 195، وتعدّ الأبواب من الآثار الخالدة التي تبني منهجية النصوص العربية على وفق مساحات تحكمها مديات الموضوع، إذاً لم تكن الباب مجرّد وعاء يحوي تقسيمات مقصودة فحسب، بل هي من أعتاب النصية، وأداة إحالية كبرى في النص، وإن اختلفت فيها المقاصد فهي رابط مختلف الأبعاد يربط من خلالها أجزاء الخطاب اللغوي في وحدة عضوية متماسكة، والإحالة من العناصر المهمة في السبك النصي التي تحقق الربط بين أجزاءه من خلال آليات محددة كالضمائر والموصولات، وأسماء الإشارة، إذ يتم السبك الظاهري للنص من خلالها؛ لذلك بدأت الدراسة بالإحالة البعدية ليتسنّى للقارئ البدء بما يطرحه الكاتب من فكرة أو موضوع فيه إحالة لما يستقبل من الكتاب فيخلق الفضول شوقاً يقفز به لذلك الموضع تباعاً، مع تحقق الاقتصاد اللغوي الهادف.

مشكلة البحث:

تبدو إشكالية الدراسة في محاولة تجاوز النظرة التقليدية لـ(باب) من وصفه عنواناً إلى جعله (آلية احالية)، فالعيّنة تتقصّى أدوار (الباب) في النص الذي استطاع سيبويه عبر الإحالات المتكررة (القبلية والبعدية والمقامية) أن يخلق ما أطلق عليه اللسانيون النصيون بـ(التماسك النصي)، والسؤال الذي يحيط الدراسة يصحّ أن يكون جواباً عن تساؤل: كيف صيّر سيبويه (الباب) من مجرّد لفظ للتقسيم إلى

وحدة لسانية (آلية) تحيل القارئ بين الماضي (النص السابق) والمستقبل (النص اللاحق) داخل الكتاب؟

وتستمد الدراسة أهميتها من جعلها إعادة لقراءة التراث اللغوي في ضوء لسانيات النص، والتي تثبت أنّ سيبويه كان واعياً بـ(نحو النص) إذ جعل الكتاب عبارة عن شبكة من الروابط التي تمنع تشتت المعنى في هذا العلم الضخم.

المنهج الوصفي التحليلي هو المعتمد في الدراسة من خلال رصد في عتبة الأبواب عند سيبويه وتحليلها على وفق نظرية الإحالة وما يتبعها من تقصّي علاقة الباب بمقصدية المؤلف وتوقعات المتلقي، وربط أسباب الربط بالنتائج المرجوة من وراء النص ككل.

حدود الدراسة:

نظراً لضخامة المدونة اللسانية في (الكتاب) وتشعب الإحالات، فقد آثرت الدراسة حصر البحث التطبيقي في (الجزء الرابع) ويرجع ذلك لمبررين:

الأوّل: الطبيعة الختامية لهذا الجزء الذي جعلته مكثّف الإحالات إلى ما سبق من أصول وقواعد في الأجزاء السابقة.

الثاني: الحرص على تقديم تحليل كيفي يتناسب مع حجم البحث المطلوب، بدلاً من التحليل الكمي العام. مما يتيح للدارسين التدرّج برصد معايير النصية كاملة بهدف تحقيق التواصل المنشود من فهم تلك المدوّنة.

وخطة البحث توصل القارئ إلى غاية الفهم وتقصّي المعلومة مكتملة من غير تكرار وباقتصاد هادف من خلال استعراض أنماط الإحالة (الداخلية: القبلية والبعدية، والمقامية) المرتبطة بلفظ (الباب) وصولاً إلى فهم التقسيمات عند إمام النحاة؛ لأنّ الباب من المنظور اللغوي بها إشارت نصيّة كثيرة، جاء في اللفيف من معجم العين: أصله (بوب) والباب معروف، ومنه التبويب (الفراهيدي، صفحة 415/8)، "وأصله المدخل للشيء المُحاط بحائط يحجزه أو يحوّطه، فهو اسم لمداخل الأمكنة كباب المدينة والدار، وإضافته للتخصيص.. ويقال هذا من بابه

أي: مما يصلح،.. وبوبت الأشياء تبويباً جعلتها أبواباً متميّزة" (المناوي، 1990، صفحة 69)، ومن هذا المنطلق بوّب سيبويه الكتاب على طول موضوعاته ببراعة وتميّز فتح الآفاق للمدونة أن يرتبط أوّلها بآخرها من غير ملل ولا كلل ولا تكرار، وكأنها عمليات حسابية تداركها الفكر السيبويهي بلطافة وسلاسة، والنتيجة أنّه حقق الغاية المنشودة من كتابة تلك المدوّنة، ومنه جاء في العين" والبابة في الحُدود والحساب ونحوه: الغاية" (الفراهيدي، صفحة 414/8)، والضرورة اقتضت إرفاق جدول مبسّط لبعض المواقف لتفصيل صورة الإحالة ما بين القواعد المتفرّقة؛ لأجل التوثيق والتدليل بما وُجد أثناء الدراسة، والاكتفاء بموضع دون غيره ليكون أنموذجاً يطلق العنان للقارئ في رسم صورة المكتوب دون الحاجة إلى كتابته[1].

الكلمات المفتاحية: كتاب سيبويه، الباب، نظريّة النص، الإحالة.

-التمهيد:

حياة سيبويه (شوقي ضيف)[2]:

إمام النحو وحجة العرب، عمرو بن عثمان بن قنبر، الفارسي ثم البصري، أخذ عن عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، والخليل وأبي الخطاب الأخفش الكبير (الذهبي، 2006)، وُلد في قرية من قرى شيراز، قدِم البصرة ليكتب الحديث، فلزم حلقة حماد بن سلمة ينظر: (الزبيدي، صفحة 67)، فكان الأخير سببا في اشتغال سيبويه في النحو بعدما كان أوّل أمره يكتب الحديث ينظر: (الحموي، 1993، صفحة 1199/3)، وأخذ عن سيبويه الأخفش الأوسط ينظر: (الذهبي، 1993، صفحة 415/11)، وسيبويه أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، ولم يوضع كتاب مثل كتابه فجميع كتب الناس عيال عليه (البرمكي، 1994، صفحة

1) ينظر: البحث موضع الإحالة القبلية.

2) لقب أعجمي على أنّ أصله فارسي. ينظر: المدارس النحوية، شوقي ضيف، 57.

463/3)، كان شاباً نظيفاً جميلاً، تعلّق من كلّ علم بسبب، ومع حداثة سنه ضرب بسهم في كلّ أدب، عاش اثنتين وثلاثين سنة، أو قرابة الأربعين، مات سنة ثمانين ومئة (الذهبي، سير أعلام النبلاء، 2006، صفحة 231/8).

-الكتاب:

الكتاب يعدّ أوّل مؤلّف منظم لقواعد اللغة العربية، وهو الأساس أو المرجع الذي قامت عليه مدرسة البصرة النحوية، لم يسميه سيبويه بتسمية خاصة إلّا أنّ العلماء والطلبة من وقته أطلقوا عليه "الكتاب" تعظيما لشأنه، وإقراراً لاكتمال علم النحو فيه. ويمكن التعريف به من ثلاثة جوانب:

1-مكانته العلمية: لُقّب بقرآن النحو، واعتبره النحاة في القرن الثاني الهجري بأنّه دستور اللسان العربي، إذ جُمع فيه أصول النحو والصرف ومعاني الحروف، بالاستناد على فصحاء العرب، والقياس، والتعليل المنطقي ينظر: (البغدادي، 1997، صفحة 371/1).

2-المنهج والمحتوى: تميز الكتاب بمنهج استقرائي دقيق، فلم يكتفِ بوضع القواعد بل حلل تراكيب الجمل العربية، وفصّل بالظواهر الصوتية والدلالية، مما جعله يتألّق كتاباتً في فلسفة اللغة، وليس قواعد جافة وحسب، وتضمن الكتاب أكثر من ألف بيت شعري كشاهد لإثبات القواعد ينظر: (سيبويه، 1988، صفحة 9/1).

3-الأثر التاريخي: يُعدّ الكتاب المدار الذي دارت وتدور حوله المؤلفات النحوية اللاحقة، فمنهم من قدّما شرحاً له كالسيرافي، ومنهم من هذّبه كابن السرّاج، ومنهم من انتصر له كالنحاس، وأجمع المحققون على ومن أبرزهم عبد السلام محمد هارون على سيبويه أودع في هذا العمل خلاصة علم أستاذه (الخليل بن أحمد الفراهيدي) مرتباً إيّاه بعبقريته الخاصة ينظر: (سيبويه، 1988، صفحة 8/1).

4-المنظور النصي: فالكتاب لا يقتصر على دراسة الجملة المعزولة، بل هو بذاته إرهاصاً مبكراً لنحو النص، فقط ربط سيبويه بين الكلم السابق باللاحق، ودور البنية الكلية في المعنى، وما يحكمه من تماسك نصي. بالإضافة إلى التركيز على دور المخاطب والمتكلم مثل: "لأنّه يَعلم المخاطب حين قال.." (سيبويه، 1988، صفحة 232/1)، وبهذا يكون السياق جزءاً لا يتجزأ من بنية النص. وهذا ما سيثبته البحث والدراسة بالدلائل والبراهين من داخل النص وخارجه.

النظرية النصية:

تعدّ هذه النظرية فرع من فروع اللسانيات يركز على دراسة النص كوحدة لغوية تواصلية متكاملة، وليس مجرّد جمل متتابعة متفرّقة، فالنص لا ينغلق على نفسه بل يقف واضح المعالم أمام التواصل الإنساني (أبو غزالة، ينظر: 7)، إذ وُصف التحليل على نمطها بـ: "هو نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبّة تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة، مستويات ذات طابع تدرجي يبدأ من علاقات ما بين الجمل، ثم الفقرة، ثم النص أو الخطاب بتمامه" (النوري، 2020، صفحة 18)، وهدف هذه النظرية هو الكشف عن القوانين والآليات التي تمنح النص صفة (النصية)، وغايتها البحث في كيفية تماسك أجزاء النص ظاهرياً (السبك) ومعنوياً (الحبك)، على وفق مبادئ اتّفق عليها العلماء وأطلقوا عليها المعايير النصيّة وهي: (السبك، والحبك، والقصدية، والمقبولية، والإعلامية، والمقامية، والتناص).

الإحالة النصية:

الإحالة في اللغة تعني تحرك الشيء من مكانه، أي: التحول من موضع إلى موضع، أو من حال إلى حال ينظر: (الفراهيدي، صفحة 298/3)، وتعني العلاقة بين العبارات من جانب، وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي من جانب آخر إذ تشير إليه العبارات ينظر: (دي بوجراند، 1998، صفحة 172)، وعرّفها النصيون: "علاقة دلالية، ومن ثم لا تخضع لقيود نحوية، إلّا أنّها تخضع لقيد

دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه" (خطابي، 1991، صفحة 17)، أي: أنّ المسميات تحيل إلى مسميات أخرى على وفق علاقة (دلالية) متناسقة بين طرفي الإحالة، ويحكمها نسيج النص القائم على مبدأ التماثل بين المذكور السابق مع مذكور آخر في حيّز النص ينظر: (الزناد، 1993، صفحة 118)، ومن أهداف الإحالة: الإيجاز أو ما يعرف بالاقتصاد اللغوي، والتكرار غير المجدي ينظر: (الزناد، 1993، صفحة 118)، وتقسم الإحالة على قسمين: داخلية نصية: يُشار بها إلى دواخل النص ويحددها محيط النص ينظر: (شبل، 2009، صفحة 123)، وهي: "إحالة على العناصر اللغوية الواردة في الملفوظ، سابقة كانت أو لاحقة" (الزناد، 1993، صفحة 118)، وتنقسم الداخلية على قسمين:

1-الإحالة القبلية: وبها يُحال لاحق إلى سابق، أو متقدم في اللفظ، بوساطة كلمة أو عبارة، أو جملة، واللفظ السابق هو مفسر المراد منها ينظر: (الزناد، 1993، صفحة 118-119).

2-الإحالة البعدية: وبها يُشار إلى مذكور بعدها في النص، فيعود المضمر فيها إلى متأخر، لضرورة تطلبّها المعنى وتمامه ينظر: (النوري، 2020، صفحة 390).

أمّا الإحالة الخرجية التي تُعرف بالمقامية وسيأتي تفصيلها. والجدير بالذكر الحديث عن الإحالة باسم الإشارة لأنّه كثيراً ما ترددت (هذا باب..)

الإحالة باسم الإشارة:

أسماء الإشارة في اللغة العربية من أعرف المعارف وتختلف بحسب ما تشير إليه داخل السياق، فهذا للحاضر، وهذان للمثنى، وهؤلاء للجمع، وذلك للغائب الخ ينظر: (ابن جني، 2000، صفحة 309/1، 310)، ومن وظائف الإحالة إبراز المشار إليه وتحديده من جانب، وتعويضه من جانب آخر، والربط بين الجانبين يدركه المتلقي من خلال استحضار المشار إليه ينظر: (النوري، 2020، صفحة

263)، وعلى كلّ حال فنطاق الإحالة المقصودة يحدده محيط النص ينظر: (شبل، 2009، صفحة 123)، ومما جاء من الإحالات:

أوّلاً: الإحالة النصيّة الداخلية:

1- الإحالة البعدية: (تجهيز المتلقي)

هي أن يحيل الكاتب إلى موضع سيفصل به فيما بعد، لضرورة يعلمها ويحكمها السياق، ومن ذلك: "باب التضعيف في باب الواو" (سيبويه، 1988، صفحة 400/4)إذ استقصى الأفعال والأسماء التي تكون عينها ولامها من جنس واحد (مضعّفة) وأصلها واوي، مثل: (غزو) وكيف يثقل اللسان باجتماع الواو مع التضعيف. فالثقل يتولد من اجتماع حرفين من جنس واحد (مضعّف) مع حرف العلة (الواو) مما يستثقله اللسان في النطق.

ومن التدبّر المنهجي يظهر أنّ سيبويه لم يؤجل الكلام عبثاً بل لأسباب، منها:

-المناسبة الوظيفية: فباب التضعيف هو باب أبنية (صرفية)، والإدغام باب قضيّة (صوتية)، أي: النطق للحرف نابع من علّة صرفية جديرة بالذكر هنا، إلّا أنّها لا تكتمل إلّا بقاعدة الإدغام. وستثبت الدراسة ذلك في الموضع المدروس بالدليل.

-الربط النصي: ظهر في هذا الموضع بيان طبيعة الحروف ومخارجها (وهي مقدمة باب الإدغام) ليبين للقارئ أو المتلقي سبب الاضطرار لإدغام الواو أو قلبها، فبالإدغام نصل للغاية النهائية في معالجة ثقل التضعيف.

لذلك نجد سيبويه علّق فهم النص الحالي على نص سيأتي لاحقاً، إذ قال: "سنبين ذلك في باب الإدغام..) وحصيلة هذا الربط ما يأتي:

1-ربط أجزاء الكتاب بعضها ببعض باسم الإشارة (ذلك) إذ يشير إلى الأحكام الصوتية والعلل، التي لم يذكرها بعد.

2-خلق التوّقع لدى المتلقي بتشويق القارئ وتنبيهه إلى أنّ المسألة لها أبعاد أعمق تكتمل لاحقاً، مما يوّلد لدى القارئ كسر التوّقع بعدم القدرة على إصدار حكم جزئي من القاعدة الصرفية قبل رؤية الجانب الصوتي.

3-الاقتصاد اللغوي في تفصيل القاعدة، تغنيه عن التكرار الأحكام في باب الإدغام، عن طريق آلة الإحالة البعدية ليجوب بالقارئ إلى تفصيل القاعدة في أكثر من موضع.

2- الإحالة القبلية (ربط النص)

كثيرا ما أشار سيبويه في كتابه باسم الإشارة (هذا) فهل يعني بها الحاضر؟ الجواب يحتمل ثلاثة أوجه:

1-أن يكون مشيراً إلى ما في نفسه من العلم (وهو حاضر).

2-الإشارة إلى متوقع قد عرف وانتظر الوقوع في أقرب الأوقات إليه، فصيّره كالكائن الحاضر تقريباً لأمره.

3-أن تكون كلمة الإشارة غير مشار بها؛ ليشير بها عند الحاجة (السيرافي، 2008).

ومما جاء على هذه الإحالة: "هذا باب نظائر ما ذكرنا من بنات الياء والواو" (سيبويه، 1988، صفحة 46/4):

أحال الكاتب إلى موضع متقدّم من الكتاب، فقد أصّل سابقاً أوزان الأسماء والأفعال إذ ذكر أنّ الأصول تكون ثلاثية أو رباعية ومما فصّل فيها بنات الياء والواو، أي: الكلمات التي تنتهي بالياء والواو، ولذلك قلنا إحالة قبلية، لأنّه ذكر في هذا الباب المتأخر من الكتاب العلل الصرفية الدقيقة، تحديداً في قوله (ما ذكرنا)، إذ يستحضر القواعد العامة التي قررها في الأبواب الأولى ليفسر ظاهرة خاصة بـ(هدى) وسبب مجيئها بكسر الهاء.

إذ أراد سيبويه أن يبين ويوضح للمتلقي أنّ الحكم الصرفي الذي يقف عليه الآن هو قلب الحروف وحركتها، وهو حكم ليس بمعزل عما أصّل، بل هو جارٍ على النظائر التي سبق أن شرح أصولها، ومن هنا رُبطت الفروع بالأصول. والمتلقي يستفيد من ذلك أمور عدّة، منها:

-الاقتصاد اللغوي، فلم يضطر الكاتب إلى إعادة شرح تقسيم الكلمات إلى واوي أو يائي مرة أخرى.

-العودة بالمتلقي إلى باب سابق يتيح له ضبط القاعدة مفصّلة إلى أحكام عامة ودقيقة، ومن الدقة يستقي الحكم بتفاصيله اللغوية (نحوية وصرفية).

-جمع المختلف في قاعدة واحدة يبرز أثر كل حرف في موضعه وعلى حسب لفظه في تلك القاعدة، إذ أثبت دور العلة الصرفية والصوتية للحرف.

أداة الإحالة /نوعها	المُحال إليه وحكمه	المحال والحكم	الصفحة
-هذا باب: الإحالة بالإشارة للقاعدة الحالية. -ما ذكرنا: الإحالة بالاسم الموصول (ما) لما هو سبق ذكره	باب بناء الأفعال ومصادرها باب الحروف التي تبدل في موضع اللامات من بنات الواو والياء. الحكم: أن الواو إذا جاءت رابعة فصاعداً قلبت ياء مثل: استغزيت. أن الياء والواو إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما قلبتا ألفاً، مثل: غزا ورمى. قاعدة (رضي، رضوانا،8/ الغلي،	باب ما ذكرنا من... والحُكم هو في قاعدة عوض المصدر والتبادل بين الصيغ، فقد تأتي بعض المصادر على غير القياس المعتاد، مثل: (هدية، هديّ) وتعلليه بأنّه مصدراً من هديت فصار هديّ عوضاً عنه.	46/4-4/8

غليان15/ خشي،
خشية، 19/

ثانياً: الإحالة الخارجية المقامية:

وهي كثيرة حسب حاجة المعلومة المنقولة بالسماع كشاهد على القاعدة، ونذكر منها:

1-الإحالة المقامية العامة بلفظة العرب:

وتعني أن يُحال إلى شيء غير مذكور داخل النص، وتختص بها الضمائر الدالة التي تسهم في خلق النص ينظر: (دي بوجراند، 1998، صفحة 301)؛ لأنّها ترتبط بسياق الموقف ينظر: (شبل، 2009، صفحة 120)، وهو أن يحيل الكلام إلى محيل خارج الكتاب، كأن ينسبه إلى قبيلة، أو شخص، ومن ذلك ما يذكره كثيراً من قول العرب، جاء في "باب الساكن الذي يكون قبل آخر الحروف، فيحرّك لكراهيتهم التقاء ساكنين" (سيبويه، 1988، الصفحات 173/4-176، و301/4) فجاءت الإحالة بواسطة الاسم الموصول (ذلك) والتي تشير إلى الماضي البعيد الذي يمثله كلام العرب، والقرينة فيه إشارته بـ(قالوا.. وقالوا..)

ففي هذا الموضع تحديداً قصد رصد ظاهرة (التخلّص من التقاء الساكنين) عند الوقف، وخصّ بذلك الكلمات التي تنتهي في بنائها بساكنين، مثل: بَكْر، فالعرب يحبون التخفيف ويكرهون الجمع بين ساكنين تفادياً للنطق بمشّقة في حالات معينة (الوقف) فيحركون الساكن الأوّل بحركة خفيفة (إتباعاً أو تخفيفاً) ليتمكن اللسان من الانتقال للحرف الأخير بلفظ سلس.

والظاهر من إحالته للعرب أمور عدّة، منها:

-نظرة سيبويه للقواعد كسلوك اجتماعي وتواضع بشري وليس مجرّد قواعد جافّة.

-تفعيل دور اللهجات إذ أشار إلى أنّ بعض العرب مثل (تميم) يميلون لتحريك الساكن في حين تلتزم بعض القبائل بالتسكين.
-تأثير الطبع السليقي الفطري إذ بيّن أنّ هذا التحريك ليس خطأ لغوياً بل هو (تخفيف صوتي) يعالج الثقل على اللسان طالما يلجأ إليه العرب.
-الاحتكام السماعي لما ورد عن فصحاء العرب الذين سلُمت سليقتهم ولم تفسد.
وكلّ ما ذكرناه يعكس التفكير العجيب والدقيق الذي أوحته الإحالة في هذا الموضع، والمواضع الكثير التي جاءت مشابهة لها.
ومن خلال السياق تبيّن أنّه مرتبطٌ بحال المتكلم والسامع، ولهذا انعكاس واضح في بيان المقام من نواحٍ عدّة:
-مقام اللفظ: إذ خصّ التحريك الذي لا يحدث في الوصل، بل في مقام الوقف خاصّة، إذ يتطلّب بياناً للحرف الأخير، وأنّ تحريك ما قبله فيه إشارة إلى رغبة المتكلم في إنهاء الكلام بوضوح.
-تنبيه السامع: ففيه تنبيه للسامع على انتهاء الكلمة، وفيه تنعكس فكرة واضحة عن بنية الكلمة الأصلية التي قد لا تلفظ لو اجتمع ساكنان.
-الاقتصاد اللغوي: فالعرب يميلون للتخفيف (التحريك الأخّف)؛ فتتكيف اللغة مع مقتضى الحال بتوفير الجهد العضلي عند النطق.
-الإحالة المقامية الخاصة إلى الخليل وأبي الخطاب ينظر: (الزبيدي، صفحة 40) وغيره:
نسب سيبويه في كثير من المواضع كلامه إلى الخليل (ت180ه)، وكانت الإحالة بضمير المتكلم (نا) من ذلك: "باب الحرف الذي تبدل مكانه في الوقف حرفاً أبين منه يشبهه لأنّه خفيٌ وكان الذي يشبهه أولى" (سيبويه، 1988، صفحة 181/4)، مثل: مصطفين، فسيبويه هنا يدمج بين القياس (الخليل) (شوقي

ضيف)[3] والسماع (أبو الخطاب الأخفش) ينظر: (القفطي، 1982، صفحة 157/2)، وتغيير هوية الحرف عبد الوقف والتبديل، والتعبير بصيغة الجمع (حدثنا) توحي بأنّ الظاهرة نصاً منطوقاً متواتراً عن السابقين من العلماء مما يعزز التواصل مع الصدق الواقعي، وتحقيق الربط النصي الذي بدأه في الرواية عن الخليل وغيره، وانتهى بتعليل إمكانية التبديل مكانه، وكأن بسيبويه يستحضر شيوخه كشاهد عيان على تغيير العرب كلامهم عند الوقف مما يُثبت أنّ النحو هو أداء وليس مجرّد قواعد.

فالسياق ليس مجرد معلومة تاريخية بل هي قرينة ليؤكد بها سيبويه أنّ التغيير الصوتي ليس شذوذاً بل قانون لغوي محكوم بالسماع (أبو الخطاب) والقياس (الخليل) مما يمنح النص تماسكاً منطقياً تاريخياً مدعوماً بالدلائل التي توحي بالمعاني المقصودة، فهذا موضع شريف، نبه عليه الخليل، وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول.

التوصيات والمقترحات:

-للكتاب فضاء واسع من وجهة لسانية يمكن أن تضيف للتاريخ البحثي في أساس اللغة وموضوعاتها التراثية عند سيبويه، فمن الممكن دراسة الإحالات المختلفة في الكتاب، وممكن دراسة أنماط الإحالة بالتفصيل، بل يمكن دراسة السبك وأدواته، والحبك وأساليبه، أي دراسة البناء السطحي والمفهومي لنص الكتاب.

3)أصل الخليل قواعد النحو وأقام بنيانه على السماع والتعليل والقياس، وجعل السماع نبعين كبيرين: نبع القرّاء للذكر الحكيم، وهو نفسه قارئ، ونبع الأخذ من أفواه العرب الأقحاح الموثوق بعربيتهم. ينظر: المدارس النحوية، شوقي ضيف، 46-47.

-النتائج:

-وظّف سيبويه في (الكتاب) لفظة (باب) كأداة منهجية، مثل: هذا باب كذا.. وكأنّه ربط بين معنى ما قاله الخليل في تعريف الباب والتبويب، أي: كأن العين تحول إلى دستور منهجي في (الكتاب).

-يبني سيبويه كتابه بشكل تراكمي على منهجية واحدة تُبنى على التأصيل، مثلاً يذكر أوزان الأسماء والأفعال في أبواب مبكرة (متقدمة) إذ يبسط الأصول كونها ثلاثية ورباعية، (ويوضح بنات الواو والياء مثلاً) ثم يحيل عليها في الأجزاء المتأخرة للعلل الصرفية الدقيقة التابعة لها لكن احتاجت تخصيص لعلتها وانفرادها بقاعدة خاصة. (مثلا: هذا باب نظائر ما ذكرنا من بنات الياء والواو..)

-منهج سيبويه في الكتاب من الناحية الإحالية قمة في الضبط والتخطيط إذ يتمهل في تفصيل المعلومات وربطها على وفق ما يناسب مستويات اللغة العربية من نحو وصرف وصوت، وهذا ما عرفناه في الدراسة اللغوية التراثية، وأثبتته الدراسات اللسانية النصية الحديثة.

-لا يمكن للقارئ الاستفادة من موضوعات الكتاب كلّا في موضعه مالم يجعل له خطوط عودة لكل ما يشير له المؤلف من إحالات قبلية أو بعدية أو حتى مقامية.

-الربط بين مستويات اللغة من نحو وصرف وصوت ودلالة حقيقة لا بدّ منها، وإن كانت طبيعة الحياة العلمية تقتضي التعمّق بالاختصاص الدقيق فليست على حساب التفرّد بالاختصاص بقدر ما يمكن للمختص من ربط تلك المستويات بعضها ببعض والخروج بقاعدة سليمة تغني القارئ أو المتلقي.

-لا يمكن لنحو الجملة انتاج ما ينتجه نحو النص على الاطلاق وإن وصل إلى أبعد المدى.

المصادر:

-أبو العباس البرمكي. (1994). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (المجلد 5). (إحسان عباس، المحرر) بيروت: دار صادر.

- أبو الفتح ابن جني. (2000). سر صناعة الإعراب (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

- أحمد الفراهيدي. (بلا تاريخ). العين. (مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، المحرر) مكتبة الهلال.

- أحمد شوقي ضيف. (بلا تاريخ). المدارس النحوية. دار المعارف.

- الأزهر الزناد. (1993). نسيج النص (المجلد 1). بيروت: المركز الثقافي.

- الحسن السيرافي. (2008). شرح كتاب سيبويه (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

- جمال الدين القفطي. (1982). إنباه الرواة على أنباه النحاة (المجلد 1). القاهرة: دار الفكر العربي.

- روبرت دي بوجراند. (1998). النص والخطاب والإجراء (المجلد 1). (تمام حسان، المترجمون)

- شمس الدين الذهبي. (1993). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (المجلد 2). بيروت: دار الكتاب العربي.

- شمس الدين الذهبي. (2006). سير أعلام النبلاء. القاهرة: دار حديث.

- شمس الدين الذهبي. (2006). سير أعلام النبلاء. القاهرة: دار الحديث.

- شهاب الدين الحموي. (1993). معجم الأدباء (المجلد 1). (إحسان عباس، المحرر) بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- عبد الرؤوف المناوي. (1990). التوقيف على مهمات التعاريف (المجلد 1). (عبد الحميد صالح حمدان، المحرر) القاهرة، مصر: عالم الكتب.

- عبد القادر البغدادي. (1997). خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب (المجلد 4). (عبد السلام محمد هارون، المحرر) القاهرة: الخانجي.
- عزة شبل. (2009). علم لغة النص، النظرية والتطبيق (المجلد 2). القاهرة: مكتبة الآداب.
- عمرو سيبويه. (1988). الكتاب (المجلد 3). (عبد السلام محمد هارون، المحرر) القاهرة: الخانجي.
- محمد الزبيدي. (بلا تاريخ). طبقات النحويين واللغويين (المجلد 2). (محمد أبو الفضل إبراهيم، المحرر) دار المعارف.
- حمد النوري. (2020). لسانيات النص وتحليل الخطاب (المجلد 1). (سعد مصلوح، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.
- محمد خطابي. (1991). لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) (المجلد 1). بيروت: المركز الثقافي العربي.